# البنية الشعرية الصوفيّة ودلالاتها
# في قصيدة الشيخ أبوعبدالله المغوفل المسماة(المعطلة)

**د. كمال لعور**

**جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف (الجزائر)**

**ملخص المقال بالعربية:**

مارس المتصوفة الجزائريون على مرّ العصور، وكرّ الدهور أدواراً مختلفة، فكانت زواياهم مراصداً للعلم والحكمة والتصوف، وعرفت أيضا بأنها منارات للعبادة والتنسك، وهي كذلك معاقل للرباط، وإمداد الجيوش بأسود الثغور، وكانت الزوايا المترامية الأطراف حول الشلف الأسفل تمارس هذا الدور بتفانٍ، ويمكن أن نعدّ علمائها فنكلّ في العدِّ، فمنهم "يحي بن أبي عمران المازوني" وهو فقيه وقاضي بارع(ت سنة 889هـ)[1] ومنهم أهل السلوك والحقيقة كبوعبد الله المغوفل.

**ملخص المقال بالفرنسية:**

Le terme « soufisme », Tasawwuf en arabe, est défini comme un enseignement initiatique, une progression spirituelle qui comporte différentes étapes de purification de l'âme. Le soufisme a été transmis dès les premiers siècles de l'Islam par de petits groupes de maîtres.

Un de ses maitres Est Sidi BOUABDELLAH Almeghoufel,un des célébrités et les justes qui ont le culte des saints.Son lieu de residence était la vallee du bas chelif et il est aussi

SIDI BOUABDELLAH se consacra a la Sunna et au soufisme ,et se fit une grande renommée parmi ses contemporains, dans le hadith, l 'éxegèse le tafsir et la littérature.Il fonda sa zouia qui se tronforme un important pole du savoir et de l' enseignement.C' est le saint patron de la ville de OUED RHIOU.De ses oeuvres ont conservées que quelques qacidates de medh comme son ouvrage sur les saints patrons de la vallée du Chéliff, intitulé el Falk el kawakibi et comme son poéme intitulé –almoaàtala- que nous avons choisi étudier.

مارس المتصوفة الجزائريون على مرّ العصور، وكرّ الدهور أدواراً مختلفة، فكانت زواياهم مراصداً للعلم والحكمة والتصوف، وعرفت أيضا بأنها منارات للعبادة والتنسك، وهي كذلك معاقل للرباط، وإمداد الجيوش بأسود الثغور، وكانت الزوايا المترامية الأطراف حول الشلف الأسفل تمارس هذا الدور بتفانٍ، ويمكن أن نعدّ علمائها فنكلّ في العدِّ، فمنهم "يحي بن أبي عمران المازوني" وهو فقيه وقاضي بارع(ت سنة 889هـ)[1] ومنهم أهل السلوك والحقيقة كبوعبد الله المغوفل.

وقد رغبنا أن نسلّط النور على واحد من الإنتاجات الأدبية الدينية التي برع فيها العلامة سيدي بوعبدالله، من خلال شرح وتحليل قصيدته التي لا تزال مخطوطا مودعا بالمكتبة الوطنية. والهدف من وراء ذلك السعي إلى إماطة اللثام عن الأعمال الصوفية الجزائرية المختزنة تحجيما لحملة الاستصغار التي قوبل بها المتصوفة على مرّ العصور "والتي كانت السبب المباشر في ضياع إنتاجهم، وإلى التعمية على أخبارهم وحكاياتهم"[2]

وقد أدرجنا في هذا المقال تعليقا على الوثيقة المحققة المتضمنة للقصيدة ثم سلكنا طريق التقرب من شخصية العالم الصوفي **الشيخ أبي عبدالله** حتى تسعفنا هذه الإطلالة على تفهم جزء من مضمون قصيدته، أو أنها العادة والإرادة في كلِّ دراسة، ومن المضمون عرّجنا على استكناه أجزاء من التركيب والأساليب المستعملة بمدارسة إيقاعها ودلالتها التعبيرية.

ورغم الشهرة المطردة لهذا العالم إلا أنَ قصائده ظلت مطمورة في غياهب النسيان قديما وحديثا بل أن الشراح في زمانه كما يقول **أبو القاسم سعد الله** أهملوا شرح أرجوزته "الفلك الكواكبي وسلم الراقي إلى المراتب" التي ترجم فيها لصلحاء وأولياء منطقة الشلف مبتدئا بالقرن السادس ومنتهيا بالقرن التاسع الهجري " وقد كنا ذكرنا أن المغوفل عاش في بداية العهد العثماني ورجزه قصير وبسيط، ومن سوء حظه أن أحدا لم يعمد إلى شرحه وتوضيح التراجم التي لمح إليها أو اختصرها، وبذلك ظل محتوى الرجز غامضا فكثير من الأسماء التي وردت غير معروفة إلا للناظم"

وقصيدته المعطلة التي اعتبرها الدراسون حجة على مكانته بالرغم من شهرتها وشيوع الشروح في ذلك العصر" فإننا لا نعرف أحدا قد تناولها بالشرح...والظاهر أن لغة المغوفل إما ضعيفة أصلا وإما أضرَ بها نساخ أشعاره"*

فما المضمون الذي طوي بين دفتي هذه القصيدة؟ وأي طريقة طرقها سيدي بوعبدالله في نقل المعاني، وعلى أي أساس اختار لقصيدته الحروف غير المنقوطة؟ وهل سار المادح على درب الأوائل في مدحه النبوي أم حاد عن سابقيه؟

**1–وصف المخطوط****:أمكننا العثور على نسخة واحدة يتيمة من القصيدة المدحيّة لسيدي بوعبدالله بمكتبة الحامة بفرع الدوريات والمخطوطات المصورة تحت رقم:

وتضم هذه المجموعة إلى جانب القصيدة السابقة أرجوزة سيدي بوعبدالله المعروفة بالفلك الكواكبي، وكذلك قصيدة ثالثة يمح فيها أحد المحبين هذا الولي الصالح.

**2–ترجمة شخصية العلامة:** سيدي بوعبد الله المغوفل المعروف بسيدي بوعبدالله ولي من الأولياء في التصوف، ولد سنة 823 هـ ويعود نسبه إلى الحسن بن علي من جهة سيدي عبد السلام بن مشيش، لم يصلنا الشيئ الكثير عن أطوار حياته ونشأته على غرار الكثير من الصلحاء، ومما يعتقده الباحثون أنّ إقامته كانت بمنطقة الشلف السفلى، وأنّ دراسته كانت على يد **سيدي أحمد حمادوش، سيدي علي الجوثي**، وكان العلاّمة الأخير مجيدا للحديث وعن بداية تصوفه تشير بعض المؤلفات إلى أنّ **سيدي بوعبدالله** قد سافر إلى البقاع المقدسة فأدّى فريضة الحجِّ ثم حلَّ بتونس، وفيها ظهرت ولايته على حدّ قول أبي القاسم سعد الله وبعدها إستقرّ بمنطقة الشلف.

تزوج **سيدي بوعبدالله** بامرأتين خلف منهما ستة أولاد وبنتا معظمهم أولياء صالحون.*

ومن مواقفه البطولية أنه أرسل إثنين من أبنائه هما –سيدي عمّار–وسيدي أحمد أفغول– لمواجهة حكّام تلمسان رفقة العثمانيين.[3]

وقد أشار أبو القاسم سعد الله إلى السطوة الروحية الكبيرة لدى هذا العلم على سكان المنطقة فكان العثمانيون يسعون إلى الاستفادة منه[4] كلماّ حزبهم أمر أو داهمهم خطر.

وقد ترسخت الولاية بعده في أحفاده، فيعتبر سيدي عابد الولي الصالح القائم ضريحه بمرجة سيدي عابد حفيدا له من جهة إبنه سيدي أحمد أفغول.

من آثاره التي خلفها أرجوزة بعنوان: الفلك الكواكبي،وسلم الراقي إلى المراتب، وهي مخطوطة جمع فيها أخبار الأولياء من ق6هـ إلى ق9هـ مظهراً فيها آداب طريقة التصوف وخصائص المريدين والأولياء، وغرضه التبرك من أجل تنبيه الغافل وحتى يتوب المذنب، وعن أهمية هذه الأرجوزة التي ضمت طائفة طويلة من صلحاء منطقة الشلف يؤكد المؤرخ سعد الله أنها أهمّ عمل عالج هذا الموضوع بعد موضوع "صلحاء الشلف لموسى المازوني".

ومطلع هذه الأرجوزة:

والتفسير والمنطق والأدب.

**الحمد لله الذي ألهمـــنا  من فضله لما به أمـــرنا**

**رزقنا التوفيق بالعقل المنـير  أكرمنا وبالنبي البـــشير**

ورغم قيمة هذه الأرجوزة في التعريف برجال السلف إلا أنها محشوة بالأساطير والخرافات والتقاليد الشعبية، فهي بالتالي ومن الذين قرضوا هذا الولي العلامة **أبو راس الناصري*** في كتابه(عجائب الأسفار) والسبب في ذلك إعجابه بمكانته الأدبية التي مكنته من نظم قصيدة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ناهزت السبعين بيتا شعريا ليس فيها حرف منقط بل كلها عواطل.

وكانت وفاة هذا العلامة سنة 923هـ أو 924هـ**

**3-اللحمة النسجية:** المدائح النبوية قديمة قدم الرسالة المحمدية، فيعود فضل شيوعها أول الأمر إلى الشاعر حسان بن ثابت، ثم انتشرت مع العصر الأموي في بكائيات الشيِّعة، فهي تعدّ بداية للتصوف الإسلامي، لأن القصائد التي مدح فيها الشعراء الرسول صلى الله عليه وسلم انطلقت من حبِّ النبي وآله، وقد أتقنها الجزائريون على غرار المغاربة والمشارقة حتى أضحت في نظر بعضهم "السلاح الوحيد الذي عبّر به الشعراء عن ظروفهم وإحساسهم"[6]

كما كان المديح النبوي في عصور الاستعمار الذي منيت به الجزائر -بمختلف الأشكال والأعراق- جانبا من جوانب المقاومة الأدبيّة للزوايا والطرق، بوصف القرآن والإلحاح عليه في القصائد الشعرية كردّ فعل على حركة التبشير المسيحيّة التي كانت ترتكز على معجزات المسيح عليه السلام، وفي ذلك تحدٍّ للاحتلال والصليب معا.

ويظهر الشاعر منذ مطلع القصيدة آيات الرعاية الربَّانية التي أحاطت النبي صلى الله عليه وسلم بين قومه، فقد كفل الله له الرعاية والحراسة ولأزواجه، وفي ذلك إيماءة بحادثة الإفك التي اتهمت بها عائشة فبرّأها الله، أو أنَّ الله صيّر أزواجه من بعده أمهات المسلمين تعكس روح العصر الذي عاش فيه هذا الولي[5]

**حَرس الإله حُلا الإمام محمـد  وكسا عُلاه حُلا الرسول محمد**

ويعدّد بوعبدالله ألوانا أخرى من الرعاية الربانية، فقد كشف الله عن النبي **صلى الله عليه وسلم** الغم والسلو وحبّبه إلى الناس، وقد وظف في هذا السياق لفظة **عَسَلَ** وفي الحديث النبوي"إذا أراد الله بعبدٍ خيرا عسلَه في الناس"* وهو يستعين بهذه اللفظة المستوحاة من مشكاة الكلم النبوي ليطعم حديثه عن أخلاق النبي، وبعد أن كان النبي مضطهدا عند الجهر بالرسالة

أظهره الله على قريش، ويبدو ذلك في تعابير البيت الثالث والرابع، ويضيف الشاعر أنّ من فتوحات الله **عز وجل** على نبيه وحبيبه أن حماه من ألد أعداءه، وأمرّ حساده سواء كان ذلك مخصصا في شخصية أبي جهل أو كلّ كافر أراد النيل منه.

**وأطَال مُلكه للسُعود مساعِدا وأمال سُمكه للصُعود الأسعد**

وكلمة **السعود** في هذه الأبيات إقرار بتوفيق الله للنبي صوب اليمن والخير وإطالة ملكه فملكه باق ما بقيت الدنيا، أما الصعود الأسعد فهي توحي بمعراجه، "والحديث عن الإسراء والمعراج كما هو معلوم من السمات الظاهرة في المدائح النبوية، فهو خاصية من خصائصها"[7]

ومن فتوحات الحق سبحانه وتعالى على نبيه أن أمدَّه بالخير والبركة عمراً وجبله على الصبر والقوة فكان صلدا، كما جبله على الكرم والكرامة، فاجتمع فيه ما تفرق في غيره ويشير الولي بوعبدالله أن الله قد أظهر لنبيه ألوان السداد ووطأ له كل طريق، ثم يخلص إلى ذكر الكمال الذي حلَّ فيه النبي والملك الذي توطد له، فكان ذاك نتيجة منطقية لما عرف به من أخلاق قبل إنزال الرسالة عليه، فهو الأمين، وهو التاجر العفيف الشريف.

وحين توطدت له الممالك لم يلتصق بعظموت المملكة، ولم يتشح بثوب الملوك يجرّه، بل كان ورعا عادلا، وتلك كانت الطريقة المثلى في سوس الرعيّة، وردّ كل مارد طاغية، كما يظهر ذلك في البيت الثالث عشر.

**هو حامل المُلك المُملَّك للعُلا هو المُراد لردِّ كلِّ مُمرَّد**

وانطلاقا من البيتين السادس والسابع عشر ينيط سيدي بوعبد لله مقام النبوة بالولاية، فإذا بها تتربى في كنف الأولى، فالأخلاق التي ساس بها الناس، وانبثقت من مشكاته النبوية أنارت الطريق لمن جاء بعده من أولياء الله، فكانت سلوكاتهم من نبع نوره، فهو يراه المثل الأعلى والقدوة السامية في عالم السلوك والحقيقة، وفي مذهب التصوف بمددٍ من الخالق سبحانه وتعالى.

ويطري الشاعر النبي صلى الله عليه وسلم إطراء يوحي بمعاني المحبة والإجلال، فهو من المسوك أفضلها، ومن السعود أسعدها، ومن الأسود أشدها بأسا، جمع الطيب الروحي والبدني، والسعادتين حتى خانت التعابير شاعرنا، فانتهى إلى لفظة "**كَمال كلِّ مكمّل**" علّها تقول ما عجزت بقية الألفاظ عن تقديمه مجتمعة.

ولفظة الكمال شغلت أهل الطريقة على مرِّ العصور، أليست كل رياضاتهم الروحية سعي حثيث لبلوغ درجة من الكمال الإنساني، فالإنسان الكامل رتبة طالما نشدها المتصوفة، وأهل

السلوك عبر كل الحقب، وهي مما لا يمكن غمطه أو إنكاره "فأما الكلام في المجاهدات والمقامات، وما يحصل من الأذواق والمواجد في نتائجها، ومحاسبة النفس على التقصير في أسبابها، فأمر لا مدفع فيه لأحد، وأذواقهم فيه صحيحة، والتحقق بها هو عين السعادة"[8].

ويستطلع معالم هدي النبي صلى الله عليه وسلم لأنه قمة العطاء والبذل بنوعيه، فحلمه عطاء معنوي، وعطاؤه مادي كذلك، أليس هو الذي أعطى ذاك الأعرابي مالا من غنيمة* اقتسمت حتى قال الأعرابي: تلك قسمة ما أريد بها وجه الله، لكن النبي زاده في الأعطية مالاً وحلماً كما زاده رعاية وحماية من الصحابة الذين اندفعوا لتأديب سليط اللسان...

**سَاس الورى عَدلا وأسَّس مُلكه وسَرا إلى سُرُر السُرور الأهود**

وقد ألفينا الشاعر **بوعبدالله** من خلال جملة من الأبيات يستند إلى التقابل المعنوي مناظراً بين شدّة النبي على الكفار ورحمته بالمؤمنين، فهو الخير كله للمتقين، وهو الرّوعُ كلّه للكافرين، قوة في غير شدة، ولين في غير ضعف.

وقد ساح سيدي بوعبدالله في حنايا صفاته وأخلاقه، فما بلغ الإحاطة، ليس عن ضعف، إنَّما عن شموخ الممدوح، فيصيبه النصب في السعي، لذلك يعترف في البيت الخامس والعشرين بعجزه عن إحصاء صفاته، وأنّه مادح فاشل، لأنّه أمام ممدوح ليس ككل الممدوحين، أعجزه الضعف عن التوفيق في الحصر.

**لو رامَ مَدحَ عُلاه مَادحه لمـا أحصَا كَمال حُلاه لا ولَما هُدِ**

ولا يجد الشاعر في الأخير من سبيل إلى ممدوحه بعد اعترافه باستحالة الإحاطة بصفاته سوى مداومة مدحه، مؤكدا على حقيقة الجزاء اللاحق بمن يثني على محمد، ففي ركب كل مادح محامد وهداية وتقى.

ويختم الشاعر قصيدته بالدعاء بدوام السرور، وحمد الله مرددا السلام على خير خلق الله مادامت الشهادة تردد في الحلوق، وتعتلج في الصدور.

وهذه الطريقة ليست بدعا في قصيدته، إنّما هي دأب شعراء المدائح النبوية، قد توسلوا بالرسول **صلى الله عليه وسلم** والصحابة وطلبوا الرحمة من الله والدعاء بالصلاة على الرسول **صلى الله عليه وسلم**، والحمد في بداية القصيدة والتوسل في نهايتها.

**4- بنية القصيدة وتشكليها**: أول ما يستوقفنا في هذه القصيدة البوعبدليّة أن شاعرنا لم يوظف أي حرف منقوط من حروف اللغة العربية، وهي أظهر قيمةٍ تستجلى في هذه القصيدة، نستشف

منها قدرة العلماء الجزائريين في العصور السابقة على تطويع اللغة العربية ومدى فصاحة أولياء الله، ويمكن أن نؤول سبب لجوئه إلى هذه الطريقة في مدحه امتنانه بالنبي بما يخرق العادة، وهذا دأب المتصوفة، فهم يرتقون بأسلوبهم وسلوكهم وأحوالهم دائما كدليل على الرياضة الفكرية، فهم في العبادة يتأنقون تأنقا للمولى، ويجاهدون النفس جهادا مستميتا، فتوبة العوام تكون عن الذنب وتوبتهم عن الغفلة، وخطايا المرء ذنب كبير أو صغير، وخطيئتهم تفكيرهم في رزق الغد، أليس ذلك قمة الأدب مع الله تعالى.

أوليس قمة أدبهم في الشعر أن يتخيروا طرقا موصلة إلى هذا الرضا، كأن يختار سيدي بوعبدالله قصيدته غير المنقوطة، وأن يجاهد في تنقيح الكلمات واختبارها جهاده في العبادة والإحسان حتى يتحد كمال السلوك، وكمال التعبير والشعور في روح الولي الصوفي[9]

الملاحظة الثانية التي سجلناها في ثنايا القصيدة تقارب تراكيبها، وكثرت الاشتقاقات من جذور الكلمات، فهي تتدفق من الأبيات كأنها تخرج في لحظة واحدة، وتنزع من فكرة موحدة مثل قوله: **السعود مساعدا/ أسلم سلَّمها / سرر السرور/ سعد الأسعد / الأمل المؤمل / سمك السماك / ملك مملّك.**

فهي تتشاكل فيما بينها تشاكلا شبه متطابق، وفي ذلك إشارة إلى شغف الولي بحب النبي فإذا جوارحه قد تظافرت، واتحدت لتعزيز هذه المكانة عبادة، وإذا تعابيره على اختلاف أصواتها تبدو مشتركة مجتمعة كأنها كلمة واحدة، فتظهر القصيدة من هنا كأنَّها أدعية متشاكلة يرددها الشاعر باغتباط وامتنان، فلفظة الملك يرددها الشاعر في أبيات كثيرة ثلاثة عشر مرّة، وهي تندرج ضمن الإطراءات المبالغ فيها من المتصوفة في حبِّ النبي وآله..

ولكن هل كثرة هذه الدوال وتشابهها يخدم المعنى دائما؟ قد يراه البعض سِجنا للمعنى في قيد اللفظة، فتضمر المعاني وتتشدق أصوات الكلمات وتجعجع الحروف، ويؤكد الركيبي هذه الحقيقة عندما يعلن "أنّ أسلوب المدائح أشبه بالنظم، ولا يعبر عن عاطفة قويّة، وصدق في الشعر بقدر ما يدلُّ على تقليد فيهما معا"[10]

والدليل على ذلك أيضا أننا نجد بعض الأبيات تكرر نفسها مثل البيت الثالث والثاني والعشرين في قوله:

**وأطال مُلكه للسُعود مُساعدا وأمال سُمكه للصُعود الأسـد**
**ورعا العُلا وأراعَ كلَّ روع وعَلا على سُمك السِّماك الأصعد**

لكن هذا الحكم لا ينطبق على كل الأبيات، فمن التراكيب التي استعملها الشاعر ما يرقى بالمعنى، ويسمو إلى غاية جليلة، ومن ذلك مقابلته بين:

**ألم العدا / أسلُ الردا ≠ أمل العَدَا / عَلم الهُدى / مِهاد كل مُمهد**

فهذه الدوال الموظفة في البيت التاسع عشر تظهر تمكن الشاعر من سبك التراكيب وترويضه للمعاني المبتغاة، فهو يصوِّر المكانة الراقية التي يحوزها النبي في سلوكه بين المؤمنين، فهو الفاتح لما أغلق، الممهد لما اعتور وصعب، وفي المقابل فبطشه بالكفار قمَّة في البطش، فهم يذوقون الألم المضاعف، ويوظف لهذا المعنى الأخير تركيبين، فيما يوظف للأول ثلاثة تراكيب، فكأنَّه من حيث يقصد أو لا يقصد يشعرنا بأنّ هذا النبي نبي الرحمة فهو رسول الملاحم في حين، ورسول المراحم في كل حين.

ومن الأبيات المفعمة بالمعاني الغزيرة قوله:

**حَسرَ الحَسُود حُلال سِحر كَلامها وأكَلَّ كاملها كَلام الحُسَّـد**

فهو يرى حاسد النبوة ومشكاتها، وحاسد القصيدة المدحيّة وغيرها معينا على كشف حقائقها فشرّه خير للقصيدة إذ أبان معانيها، وأعيت كلماتها الكاملة الجميلة المسبوكة كلام أشدِّ الحساد حسدا، فأُسقط في يده، ويبدو هذا البيت طاويا لمعنى آخر قاله أبو تمام يوما ما:

**إذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حســـود**[11]

من جهة أخرى وظف الشاعر بوعبدالله المغوفل الأفعال الدالة على القدرة الربانيَّة في صون النبي وحمايته، ومن ذلك :"**حرس–أماحه–أطال–أدار–أصال–أمدّ**" فهي تشعر بالقدرة الربانيّة المطلقة.

وحين ينتهي من ذلك يلجأ إلى توظيف أفعال أخرى منبثقة من الأولى"**ساس– رحم– رعا**" أو اسم الفاعل المقرون بالضمير المنفصل"**هو حامل/ هو صارم**" الدالة هنا على فعاليّة النبي في حياته، فقد كان سيداً قولا وفعلا، فهذه الأفعال سيقت لإثبات قدرة النبي الناجمة عن القدرة الربانيّة.

ومن خلال هذه الإطلالة السريعة في القصيدة يمكن استجلاء بعض الألفاظ الموحية مثل لفظة "**ملّكه**" فهي تدل من جهة على القوة الربانية في القضاء بالشيء للعبد الطائع، ومن جهة أخرى تدلّ على التمليك الكامل الذي لا يضارعه تمليك، فالنبي محمد صلّى الله عليه وسلم رائد الدنيا والآخرة.

ثم نصادف لفظة **مُمَرَّد** الموظفة في البيت الثالث عشر، فهي متشعبة الدلالة، فالنبي في عرف هذا الولي يردّ كل ممرّد، فهي تجمع في معانيها كلّ طاغية متفرعن جاوز الحدّ واستطال في ظلمه إنسيا كان أو جنيّا، مَرد على الشرّ أو على النفاق أو على البطش، وكفى بها لفظة موحية.

ونلمس في السياق العام رصد الشاعر لكلمات كثيرة في صيغة اسم التفضيل"**الأسعد/الأوحد/الأصلد/الأمهد/ أطود**" وهي تتوافق ومشاعر الامتنان والغبطة وتسعف تراكيب القصائد المدحية التي ترفع من شأن الممدوح، وهي في أكثرها من مصطلحات أهل السلوك وألفاظهم[12].

والمعلوم أن اسلوب الشاعر عادة لا يفارق فلكية المفردة المحيطة به ليساير الذوق العام فألفاظ: **الوداد / السؤدد / الهدى / الأمدد / موارد / مورد،** عرفها الأولياء سلوكا وذوقا فكيف لا يوظفونها نظما.

في الأخير نشير إلى أن القصيدة قد درات في فلك البحر الكامل، وهو يتميز بالجزالة وحسن الاطراد على حد تعبير حازم القرطاجني، كما وصفه أيضا بأنه "أكثر البحور جلجلة وحركات، له لون خاص من الموسيقى يناسب الجدّ، فيغدو نغما جليلا، له صلصلة كصلصلة الأجراس، وفيه نوع من الأبهة"[13]

وإذا أضفنا إلى هذه الأجراس الخارجية نواقيسا داخلية ناجمة عن تآلف الألفاظ الموظفة وتقارب أصواتها كمثل قوله في البيت الثالث والعشرون:

**المحامد – الحلا –أحلّه حلل المحل – الأحمد**

نستشعر أنّها إيقاعية بالقوة، وإيقاعية بالفعل عند انتظامها وتوزيعها توزيعا منتجا للموسيقى الداخلية، ناجم عن تكرار لفظة بعينها أو جملة أو ألفاظ مترادفة وأخرى مشتقة[14]لها بداية ووسط ونهاية.

وهذه الحلية الإيقاعية المستشعرة في القصيدة أثر من آثار نزعة التصوف التي تستدعي الإيقاع في الحضرة الصوفية عند الأولياء والمريدين، والفقراء والمحبين، ما يخلق اللذة والطرب والنشوة بالقرب.

لقد كانت منطقة الشلف الأسفل تزخر بالعلماء والصلحاء والمتصوفة الذين قدموا خدمات فكرية وروحيّة للأجيال المتلاحقة، ومن بينهم سيدي بوعبدالله المغوفل.

خدم هذا العلاّمة التصوف والأدب من خلال نظمه لأرجوزة حوت طائفة من صلحاء هذا العلم، واهتمت بنقل آداب وسلوك الخواص.

وأظهر براعته النظمية والشعرية والأدبية بتأليف قصيدة في مدح النبي، ومن خصوصياتها أنّها نظمٌ كل حروفه غير منقوطة، أو كما سميت بالمعطَّلة، ونعتقد أن الهدف من ورائها إظهار شدة التعلق بالنبي، وإلحاق خصوصية مدحيّة لا يشاركه فيها غيره من المداحين.

وكان مضمون هذه القصيدة زاخرا بالمعاني الصوفية ساردا لأحوال النبي، ومظهرا للرعاية الربانيّة التي كفلت له الخير والسعادة، وذاك مصير كل ولي صادق.

أما جانبها الشكلي البنائي، فقد اعتمد فيه الشاعر على الاشتقاقات المتعددة، والتكرار اللفظي، وبقدر ما أنعش الإيقاع الداخلي أثقل المعنى، فسيّطر النظم على المعاني في بعض الأبيات، إلا أنَّها تحررت منه في محطَّات كثيرة.

**مقطوعة شعرية من مخطوطة الشيخ بوعبدالله المغوفل**

الحمد لله الذي ألهمـنا ... من فضله لما به أمـرنا

رزقنا التوفيق بالعقل المنـير ... أكرمنا وبالنبي البـشير

حَرس الإله حُلا الإمام محمـد ... وكسا عُلاه حُلا الرسول محمـد

وأطَال مُلكه للسُعود مساعِـدا ... وأمال سُمكه للصُعود الأسعـد

هو حامل الملك المملَّك للعُـلا ... هو المراد لردِّ كلِّ مُـرَّد

سَاس الورى عَدلا وأسَّس مُلكه ... وسَرا إلى سُرُر السُرور الأهـود

لو رامَ مَدحَ عُلاه مَادحه لمـا ... أحصَا كَمال حُلاه لا ولَما هُـدِ

وأطال مُلكه للسُعود مُساعـدا ... وأمال سُمكه للصُعود الأسعـد

ورعا العُلا وأراعَ كلَّ مـروع ... وعَلا على سُمك السِّماك الأصـعد

حَسرَ الحَسُود حُلال سِحر كَلامها ... وأكَلَّ كاملها كَلام الحُسَّـد

إذا أراد الله نشر فضيلة طويـت ... أتاح لها لسان حســود

**هوامش البحث:**

1 ينظر تعريفه في كتاب: تاريخ الجزائر العام لعبد الرحمن الجيلالي،ج2، ديوان المطبوعات الجامعية، ط7، 1994،ص:.278

2 ينظر التجربة الصوفية عند شعراء المغرب العربي، لمحمد مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية،2009،ص:12، والملاحظ أن سبب اندراس أخبارهم دخولهم في شطحات صوفية ألبت عليهم علماء الظاهر والفقهاء.

*ينظر أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي،ج2،(ق10/ق14ه) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،1981،ص:364. وينطر أيضا ص: 338

** لا يزال ضريحه متواجدا بمنطقة الخدام بسيدي بوعبدالله بدائرة وادي ارهيو إلى جانب قبري زوجتيه القائمين غير بعيد عن الزاوية قرب ممر وادي الشلف

* عثرنا عليها في 32 بيتا شعريا مكتوبا بالخط المغاربي، بالرغم من أنّ أبا راس الناصري يؤكد أنّها في سبعين بيتا،

3 محمد مفلاح: أعلام من منطقة غليزان،دار هومه،ط2006،1،ص:.69

4 أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي،ج2،(ق10/ق14ه) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،1981،ص:.123

5 كان الناس ينسخون قصائد سيدي بوعبدالله للتبرك، ومنهم من كان يكتب أرجوزته المعروفة أو جزءا منها، وتوضع في الخزائن كما توضع الحلي، وهذا دليل على الوقار الذي كان يكنّه الناس لهذه العلامّة.

**الشيخ أبو راس الناصر المعسكري عالم وقاضي جزائري ولد سنة 1150ه 1737 م بقلعة بني راشد قرب معسكر لقب بالحافظ لغزارة علمه خلف 136 مخطوطة في مختلف العلوم توفي سنة 1238ه-1823م

الكتاب الذي ذكر فيه مناقب سيدي بوعبدالله بعنوان: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار فيما جرى بالأندلس ووهران بين المسلمين والكفار ،ينظر يحي بوعزيز : أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة ج2 ط2009 دار البصائر الجزائر.

* وهذه السنة توافق1517-1518 لكننا نجد مؤلف كتاب أعلام منطقة الشلف يسند وفاته إلى تاريخ 1614م، وفي كتاب أبي القاسم سعد الله يرجعه إلى سنة 1023 ه ويبدو أن أقرب التواريخ إلى الصواب سنة 1517-1518م لأن أرجوزته تشهد أنه عاش حتى القرن التاسع الهجري.

6 عبد الله الركيبي: الشعر الديني الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،ط1، 1981

7 عبد الله الركيبي: الشعر الديني الجزائري،ص:81.

*جاء في النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير 237/3 تحت كلمة عسل: فيه:إذا أراد الله بعبد خيرا عسله، قيل: يا رسول الله، وما عسله؟ قال: يفتح له عملا صالحا بين يدي موته حتى يرضى عنه من حوله. والعسل: طيب الثناء، مأخوذ من العسل، يقال: عسل الطعام يعسله: إذا جعل فيه العسل، شبه ما رزقه الله تعالى من العمل الصالح الذي طاب به ذكره بين قومه بالعسل الذي يجعل في الطعام فيحلو به ويطيب. ومنه الحديث: «إذا أراد الله بعبد خيرا عسله في الناس»، أي: طيب ثناءه فيهم.

8 مقدمة ابن خلدون،دار الفجر القاهرة ط2004 ص:587

(حديث مرفوع) حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ ، عَنْ مَنْصُورٍ ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : " لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ آثَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُنَاسًا فِي الْقِسْمَةِ ، فَأَعْطَى الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ وَأَعْطَى عُيَيْنَةَ مِثْلَ ذَلِكَ وَأَعْطَى أُنَاسًا مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ فَآثَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْقِسْمَةِ ، قَالَ : رَجُلٌ وَاللَّهِ إِنَّ هَذِهِ الْقِسْمَةَ مَا عُدِلَ فِيهَا وَمَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ، فَقُلْتُ : وَاللَّهِ لَأُخْبِرَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ ، فَقَالَ : فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ يَعْدِلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ رَحِمَ اللَّهُ مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ "

9 عبد الله الركيبي: الشعر الديني الجزائري،ص:.50

10ففي عرفنا اللغوي أن وضع النقاط على الحروف باب من أبواب الإبانة والإيضاح، وهنا تنقلب القاعدة، فالحروف غير المنقوطة طريق إلى الإبانة والإثارة.

11 انّ نور النبوة لا ينطفأ بحسد الحاسدين، إنّ حسدهم لا يعدو أن يكون نارا تزيد طيب عود الأراك، وقد ينطبق بيت سيدي بوعبدالله أتم التطابق مع تلك الفورة التي أحدثها الرسامون الكاريكاتوريون حسدا للنبي وصنائعه، فلم يزدهم عملهم أن حسروا عنه غطاء أرادو وضعه، وكشفوا غشاوة تفانوا في غزلها.

12 راشد بن حمد بن هاشل الحسني: البنى الأسلوبية في النص الشعري، دار الحكمة لندن،ط2004،1،ص:.113

13 أحمد فوزي الهيب: إيقاع الشعر العربي، من الدائرة إلى الحرف، دراسة في فلسفة العروض، دار القلم العربي، سوريا،2004،ص:128

14 مختار حبّار: الشعر الصوفي في الجزائر، إيقاعه الداخلي ووظيفته، ديوان المطبوعات الجامعية،ط1 وهران،1999،ص:75